

يجب أن تكون ثقافتنا قومية

بقلم الأستاذ أحمد الشرباصي من علماء الأزهر

لقد كان تيمورلنك واحداً كل الوهم حين قال : " يجب ألا يكون في الأرض إلا ملك واحد ، لأنه ليس ليكون إلا إله واحد " ! . كان واحداً في ذلك لأن الناس لا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، وما دعوى العالمية المطلقة التي يحلم بها بعض الخياليين إلا سراب ، فستقصي الدهور وتمر القرون والأرض تنوزعها الأمم وتنقسمها الأوطان ، وسيظل الناس إلى ما شاء الله أقواماً وشعوباً وطوائف ، لأنه يستحيل على البشر أن يتحدوا يوماً من الأيام في كل جهة وعلى كل شيء ! . . . وإذا كان هناك فريق من أبناء الوادي قد حنفوا بالأمس القريب : " تحيا العالمية وتسقط القومية " فعلمهم حين فعلوا ذلك قد فعلوه تحت تأثير خطبة ساحرة برزنيهاً وحينها ، وعذوبة ألوانها ورقة أسلوبها ، حدثتهم عن جميل الأمانى وبديع الأحلام . وخاطبت قلوبهم قبل أن تخاطب عقولهم ، وغزت عواطفهم قبل أن تغزو أذهانهم ، وإذا فقد كانوا جدرءاً بأن يسترضوا أمامهم تاريخ البشرية من أقواله القديم البعيد إلى حاضره الداني القريب ، لكي يعلموا أن هذا الحلم الجميل لم يتحقق في يوم من الأيام ، ولم يظهر من الوادي أو القواهر التي تبشر أنه ممكن معقول . وأظنهم يعملون أنه لا يمكن للعالم أن يتحد بزعيم عالمي كمحمد عليه السلام ، ويعلمون أنه جاهد في سبيل العالمية الإسلامية جهاداً لا يستطيعه زعماء الدنيا أجمعين ، ومع أنه وفق في جهاده ، ومع أنه أدى الرسالة وابع الأمانة ، ومع أنه نشر لواء الإسلام على ملك لا تقرب عنه الشمس ، فإنه لم يجمع العالم كله تحت لوائه . ولم يقلب الدنيا كلها فيجعلها كلمة واحدة وشعباً واحداً في كل شيء . . . ولم يكن ذلك عن عجز منه أو تقصير ، بل لأن الله قال له : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " . وقال له : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " .

نعم لو شاء ربك لحقق للناس " العالمية " ... ولو شاء لجمع الناس على كلمة واحدة ، ولكنه ، لحكمة أرادها ، جعلهم - وسيجعلهم هكذا دائماً - أمماً وشعوباً إلى أن يقبض الأرض ومن عليها ! . . .

إذن فالقومية باقية دائماً ، ومن الواجب على كل أمة أن تعنى بمشخصاتها الوطنية ، ودعائها القومية التي تستطيع أن نهض عليها بين الشعوب الأخرى التي تتخبط في الحياة سبيل المسابقة والمنازعة والمغالبة ... ومن الواجب على الأمة أن تعنى بتنشئة أبنائها على العصبية الشريفة المعقولة للوطن والمواطنين ، وألا تتخضع بتلك الألفاظ المعسرلة التي يصيبها في آذانها دعاة التحلل الوطني الذين ينشقون من حين لآخر .

ومن الواضح الجلى أن الطفل إذا نشأ دون أن تفرس 'المبادئ' الوطنية والدعائم القومية في نفسه وقلبه ، فسينشأ فاطر الهممة خائر العزيمة ضعيف الوطنية ؛ يشهد وطنه في الذكبة فلا يسمع ، ويرى داعى الجحد والكفاح يستصرخ به فلا يسمع ولا يجيب . . . وإذا ما ضعفت الروح الوطنية في نفوس الشباب فتوقع لأمتهم التحلل والقناء ، وقل على وجودها العفاء ! .

ذلك كله كلام صريح صحيح ، لا يعارضه ولا يجادل فيه إلا عند مكابر لا يستجيب لكلمة الحق ؛ ولا يصيخ لقولة الصدق ، فتعال بنا نتعرف نصيب مصر من الجهاد في سبيل القومية والوطنية ، ولنشهد ما تقوم به من أعمال تربية شبابها وفتياتها وأطفالها تربية مصرية قومية فيها من دواعى الاعتزاز بالوطن ، والغيرة على حريته ، والحرص على كرامته . والذود عن حماه . ما يكفل لمصر أن تكون دولة شائخة مهابة الجناح ! .

تأن ولا تعجل يا صاحبي ، فلن نتجد حين تذهب باحثا عن ذلك إلا ما يدمى القلب ويؤلم الروح ! .

ستجد مصر لم تقدم قليلا ولا كثيرا في هذه السبل ، وستجد مصر غفلة عن هذه الناحية الخطيرة التى تتعلق بها وجودها وكيانها . . . ستجد الأطفال في مصر يتعلمون ما يتعلمون ويقضون الأعوام الطوال في حجرات الدرس ، ثم لا يتلقون من تاريخ بلادهم ، أو مواقف أبطالهم ، أو مدى آمالهم ، ما يكفى لإشعال الجذوة الوطنية في أرواحهم ؛ بل هم - والحمد لله الذى لا يحمد على المكروه سواه - يتلقون من تاريخ الأمم لأخرى المعادية منها والصديقة ، أكثر مما يتلقون من تاريخ آبائهم وأجدادهم القريين والبعيد .

ستجد الشباب لا يعرف ما يجب عليه لوطنه ووطنه ، وستجد كثيرا من شبابنا لا يفهم كيف تحكم بلاده ، أو كيف تهتم ، أو كيف تنفذ مشروعاتها ، أو كيف تسعى إلى آمالها المادية والأدبية ، أو كيف تتعاون الهيئات التشريعية والقضائية والتنفيذية على إدارة أمور البلاد ، أو ما هى اختصاصات كل جماعة وواجبات كل طائفة ، إلى غير ذلك من شؤون الوطن التى يجب على كل وطنى أن يحيط بها علما ! .

ستجد أكثرهم لا يعرف شيئا عن طريق شقيقاتنا الأقطار العربية التى يتكون منها الوطن الاسلامى الأكبر ، وقد يسمع الحديث عن الوحدة العربية فلا يفهم معناها الصحيح ، ولا الأوضاع التى تنشأ أن تكون ضلها في المستقبل القريب أو البعيد ! . . . وقد يتناول المصرى القارئ صحيفة أو مجلة أو كتابا ، وفى كل منها أحاديث عن مصر وأحاديث عن غيرها من الشعوب والأمم ، قراء لا يهتم بمطالعة أحاديث بلاده ، بل هو يرجع إلى الفصول الطوال التى ديجت عن الأمم الأخرى فيطالعها في تدبر ودقة ، مفائرا بذلك متباها ، حاسبا أن هذا من علامات الرقى والتقدم .

وتلك هي جمهرة شبابنا من طلاب الجامعات والمعاهد العالية ، تجدها تعنى بدراسة الآداب الأوروبية أكثر مما تعنى بدراسة الآداب العربية أو المصرية ، وإنك لتجد أمثال شكسبير وجوته وفولتير وشوبنهاور وروسو وبيرون وشلي وتولستوى ولاهرتين ونيتشة وغيرهم من رجال الغرب أشهر لديهم وأعرف من أمثال المتنبي والبحتري وابن رشد والفارابي وابن نباتة والغزالي وابن الفارض والبوصيري وغيرهم من مفكرى مصر والعرب ، وقل مثل هذا عن أبطال التاريخ والسياسة والتشريع والاجتماع ! .

بل إننا إذا انتقلنا إلى الأزهر الشريف وهو معقل القديم وقلة المحافظة ، راعا أن نجد ثقافته اليوم مضطربة مذبذبة بين القديم والحديد ، يعز على أبنائه تراث الأسلاف فيتمسكون به ، ويهرهم رواء الحديث فيندفعون نحوه ، وبين الماضي والحاضر يقف الأزهر اليوم وقفة المبلبل الحائر ، الذى لا يستطيع الملاءمة أو التوفيق بين تقاليد ودين ما جد من ثقافات ، بل لقد هتف بعض الباحثين متوجسا الخوف من انفجار الأزهر المحافظ في تيار الثقافة الحديثة دون أن يصلها بثقافته الموروثة ، ويرى ذلك البعض أنه يجب المبادرة بإصلاح هذه الحال ، والا نفقدنا الأمل في الإبقاء على ما يحفظ للأمة مقوماتها من أسس الثقافة الخاصة بها التي لو لم تكن قوية محروسة ، لتبعت الأمة وضاعت في خضم الأمم ! .

أولم يكفنا أن نشهد في مصر تلك المدارس الأجنبية المنتشرة في وادى النيل انتشار الجراد . تلك المدارس التي تختلف نزعاتها وتتعدد مشاربها وتتلون غاياتها ، وهتم أول ما هتم بنشر ثقافتها الوطنية ، وتفرض على تلاميذها ، وأكثرهم من المصريين ، أن يتعلموا لغة غير لغتهم الوطنية ، وأن يسمعوا تعاليم دينية تخالف تعاليم دينهم ، وأن يدرسوا تاريخ أُمم ورجال لم يكن لهم بهم صلة إلا ما يثير الألم ويبعث الشجن ؟ .

تلك المدارس التي ذاعت وشاعت ، وزاحت المدارس المصرية حتى غلبتها في العدد والنفوذ ، تلك المدارس التي يحسن الظن بها كثير من المصريين ، فيدفعون اليها بغلطات أكبادهم ، وهم في سن الطفولة البريئة الغافلة ، ثم لا يبالون : ثلثي هؤلاء الأبناء ما يتفق مع دينهم ومقومات وطنهم أم لا . . . ؟ فينشأون ولا صلة بينهم وبين لغتهم ، ولا رابطة تربطهم ببني جنسهم ، ولا وطنية تحركهم ، فيكونون كالسوس الفتاك الذى يخترق فيحل الأمة حتى يأتى عليه من الأساس ! . . .

أندرون ما ذا تفعل العراق الشقيقة في هذا الشأن ؟ . . . العراق الصغيرة التي لم تبدأ نهضتها إلا منذ سنوات ، العراق الذى تدين لمصر بالزعامة وتقضى بها في نواحي الحياة ؟ !

في إمام الماضي تشرفت مصر بزيارة رجلين من رجال العلم في العراق هما الدكتور فاضل الحمالي مدير التربية والتعليم بالعراق ، والدكتور متى حقراوى عميد دار المعلمين العالية ببغداد ، وهما اللذان استدبا لتمثيلا العراق في مؤتمر تدريس العلوم الذى عقد بالقاهرة ، وقد تماديا مع وزارة المعارف المصرية فيما تحادنا عن المدارس الأجنبية في مصر والعراق ،

وقد نشرت جريدة "البلاغ" يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ كلمة عن هذه المحادثات جاء فيها هذا الخبر :

"وقد علمنا من مضمون هذه المحادثات أن العراق لحا إلى اجراء قانونى لم يتخذ بعد في مصر ، وهو محاكمة كل عراقى يلحق ابنه بالمدارس الأجنبية في المرحلة الابتدائية ، واعتبار هذا التصرف مسنه ضررا موجها لسلامة الثقافة القومية للطفل في هذه السن الصغيرة ، التي يسهل فيها تكييف عاطفة الطفل وصوغ عقليته وفق ماترى إليه الخلط الثقافي المتباينة ، وقيل في ذلك : أن المحاكم العراقية قضت بالحبس وبالغرامات الكبيرة على بعض أولياء الأمور لهذا السبب ، وكانت العقوبة تقدر بحسب الظروف التي يدلى بها الآباء في الدفاع عما فعلوا ! ... " .

هذا هو ما حدث في العراق ، فليت شعري ... أين هذا القرار السديد الحكيم الدال على الوطنية الصادقة والروح العربية الصحيحة مما يتحدث في مصر ؟ ... لقد سمعنا أن بعض علماء المسلمين في مصر يدخلون أطفالهم ، لا في الأزهر كما يجب أن يكون ، ولا في مدرسة مصرية كما قد يباح ، بل يدخلونهم مدارس اجنبية مهما قيل في خدمتها للعلم والثقافة ، فهي غريبة دخيلة ... وأين مصر من شقيقتها العراق والمدارس الأجنبية في مصر لا تدرس علومها إلا بأقنيتها الدخيلة الأعجمية ، والمواد التي تدرس فيها لا تتصل بلقننا ولا بديننا ولا بوطننا إلا بسبب ضعيف ؟ ...

أما بعد ، فليست هذه دعوة إلى العصبية المقتوتة ، ولا إلى المناداة بإلغاء المدارس الأجنبية ، ولا بالتعامل على أصحابها بغير حق ، وإنما هي دعوة نرجو بها أن المصريين بأبنائهم ، فينشئوهم تنشئة قومية صالحة ، لأن الشباب هم رجال الغد ، ومن الواجب أن يكون تعليمهم مصرية عربيا إسلاميا صميا ، حتى نضمن للوادي الكريم ماته يوم الجلد ، وبنائه عند التعمير ، وجنوده حين الجهاد ! .

أحمد الشرباصي
مخرج كلية اللغة العربية